هل الصورة شيء بصريٌّ؟

ما الذي يجمع – في اللغة العربية – بين الصورة الفوتوغرافية والصورة المرسومة بالألوان والصورة البيانية والصورة البلاغية وصورة المرء عن نفسه وصورة الذات وصورة الآخر والصورة الكاريكاتورية والصورة المجازية وصورة الشيء وصورة الأمر والصورة الذهنية، وما إلى ذلك من أوصاف قد تقترن بكلمة "صورة"؟

وكذلك الأمر في اللغة الإنجليزية على سبيل المثال: فكلمة image تعني تمثيل الشكل الخارجي لشخص أو شيء في الفنون؛ انطباع بصري تنقله لنا الكاميرا أو التليسكوب أو الميكروسكوب أو أي أداة أخرى؛ ما يُعرض على شاشة؛ الجانب البصري الذي يتجلى في المرآة أو تعكسه المرآة أو يظهر بسبب مرور الضوء في عدسة ما؛ صورة ذهنية؛ الانطباع العام الذي يشكّه الناس عن شخص أو مؤسسة أو منتَج؛ استعارة أو تشبيه.

ونجد نفس التنوع بالنسبة لكلمة picture، فتعني: اللوحة الزيتية؛ الرسم بالرصاص؛ الصورة الفوتوغرافية؛ الصورة الشخصية؛ الصورة التي تظهر على شاشة التليفزيون؛ الانطباع الذي يتشكّل في عقل الشخص من خلال وصف ما أو قصة ما أو خبر ما؛ الوجود في قلب الحدث أو الإلمام به؛ شريط السينما؛ السينما ذاتها؛ شخص يوجه بينه وبين شخص آخر شبهٌ كبير.

عندما نتأمل كل هذه المعاني والارتباطات والتداعيات المتعلقة بكلمة "الصورة" في اللغتين الإنجليزية والعربية، نجد أن مفهوم الصورة لا يقتصر على الجانب البصري المادي الذي يمكن إدراكه بالعين أو حاسة البصر. فعلى سبيل المثال، لا يُشتَرَط في الصورة التي تنقلها لنا الكاميرا أو التليسكوب أو الميكروسكوب أن تماثل الأصل، لأن ذلك يخضع لدقة الآلة ومدى شمول الاكتشافات والمبادئ العلمية التي تكمن وراء اختراعها أو تصميمها.

وكذلك الأمر بالنسبة للسينما والتليفزيون، فالإخراج والمونتاج والمؤثرات البصرية والسمعية يلعبون دورا مهما في رؤيتنا للصورة وفهمنا لها وتأويلها، لأن هناك عين بشرية وعقل بشري ووجدان بشري يلعبون دورا في تشكيل الصورة من منظور معين وتحويل مسار تأويلها، كما أن هذه الصورة ليست صورة مادية بطبعتها لأن التكنولوجيا تمزجها بمؤثرات وتصورات أخرى تخلق منها صورة هجين، كما في الأفلام التي تحاول أن تصوّر بطريقة سينمائية ما يدور داخل شخص معين، فالصورة في هذه الحالة صورة داخلية مركَّبة من صور وأشياء أخرى غير بصرية في الأساس.

ونجد نفس الشيء في الصورة المرسومة زيتيا أو بالرصاص، فهي لا تمثل الشخص أو الشيء المرسوم بقدر ما تمثل رؤية الفنان له ونظرته الخاصة تجاهه، وقد تكون الصورة المرسومة عبارة عن حلم أو شيء خيالي لا يوجد في أرض الواقع.

المنظور هو العامل الحاسم في تشكيل أي صورة في نطاق الفنون والآداب والمعاملات الإنسانية والحياتية. وهذا المنظور جزء من مكونات شخصية العين الراصدة أو الذات المفكرة أو القلب الحَسَّاس، وبالتالي هو عنصر داخلي باطني، سواء أكان ينتمي للعقل أم للقلب أم لبرزخ يقع بينهما. ومادام الأمر كذلك، فأي صورة في الدنيا صورة ذاتية في الأساس، دون أن ينفي ذلك أن بعض الصور لها وجود خارجي، أو بالأحرى، أصلها موجود خارج الذات التي ترصدها من منظور معين.

ولذلك عندما نتكلم عن الصورة في الأدب أو الفن بوجه عام، أو قصيدة الهايكو بوصفها نوعا خاصا من الأنواع الشعرية المكتوبة، فإننا نتحدث عن عالم كامل يكاد يقارب الوجود البشري بأكمله بما فيه من داخل وخارج، من ذات وموضوع، من حاسة بصر وحواس أخرى، من البرازخ المتنوعة التي تنتج عن التقاء هذه الثنائيات وانصهارها ببعضها البعض.